افتتاح مجلس المبعوثان

﴿ ثلاث خطب ارتجالية في الاحتفال به ﴾

بطرابلس الشام (*)

خلاصة الخطبة الاولى في ميدان التل

أيتها الامة العثمانية الكريمة

أهنئكِ بهذا اليوم السعيد الذي تحتفلين فيه بافتتاح مجلس المبعوثين واني لاهنئك بأمر عظيم ، أهنئك بأنك صرت بهذا اليوم أمة ، وما أحلى هذا القول في فمي ، وأحبه الى قلبي ، نعم في هذا اليوم صار يصح إطلاق لفظ الامة عليك ولم تكوني من قبله الا عبارة عن افراد متفرقين لا يصدق عليهم هذا اللفظ على وجه الحقيقة.

يطلق لفظ الامة في عرف علماء الاجتماع والسياسة على الجمع العظيم الذي يتألف من شعوب متعددة ويرتبط بعض افراده ببعض بقوانين ومصالح مشتركة . فالاجتماع هو الاصل الذي يتحقق به معنى الامة المؤلفة من جمعيات بعضها أكبر من بعض أدناها الاسرة وهي أول اجتماع بشري وأقدمه ، وأعلاها الامة التي هي منتهى ما يصل اليه الاجتماع

هل يسوغ لنا ان ندعي اننا كنا أمة في طور الاستبداد الماضي الذي قضينا عليه القضاء المبرم في هذا اليوم ؟ كيف وقد كنا ممنوعين من كل معنى من معاني

(*) احتفل بطرابلس كسائر البلاد العثمانية بافتتاح مجلس المبعوثان يوم الخميس ٢٤ ذي القعدة فخطب صاحب هذه المجلة في الاحتفال العام بميدان التل امام هيئتي الحكومة الملكية والعسكرية وجمهور الاهالي ثم خطب في نادي الجامعة العثمانية امام الهيئتين ثم في نادي جمعية الاتحاد والترقي وهذه خلاصة ماقال

الاجتماع حتى في الاسرة فقد صار الاب يهرب من ابنه والابن ينفر من أبيه والاخ يفر من أخيه خوفا من تجسس بعضهم على بعض ، وحتى صار الاجتماع في الاعراس والمآتم مخوفا ومهددا في دار السلطنة !! منع الاستبداد الماضي ان يجتمع الناس للشكوى من الظلم بأنفسهم أو بكتابة « المحاضر » وفرض عليهم ان يشكوا منفردين وان كان ما يشكون منه مشتركا بل منع شهادة التواتر الشرعية لانها لا تحصل إلا من جمع كثير . فالافراد الذين يمنعون من أصغر أنواع الاجتماع ويهددون بالعقاب عليه كيف يسوغ لهم ان يدعوا أرقى أنواعه وأعلاها ؟

اليوم قد تحقق زوال ذلك الاستبداد المفرق فاجتمع المبعوثان الذين اختارتهم الشعوب العثمانية لينوبوا عنها في القيام بمصالحها العامة كوضع القوانين والمراقبة على الحكام العاملين فبهذا الاجتماع تحقق تكوُّن الامة

فهذا اليوم هو العيد الوطني الاكبر العام لجميع العثمانيين فان ما عداه من الاعياد الدينية وغير الدينية خاص ببعض الشعوب والاجناس أو بعض الاديان والمذاهب ، وفي هذا اليوم يحتفل بهذا العيد المسلم والنصراني واليهودي وغيرهم ، يحتفل به التركي والعربي والالباني والرومي والكردي والارمني ، يحتفل به العثمانيون في البلاد العثمانية ، وحيثما كانوا من البلاد الاجنبية ، يحتفلون به مجتمعين ممتزجا بعضهم ببعض لانه عيد الجميع

هذا الجمع الذي نحن فيه يمثل لنا احتفالا من تلك الاحتفالات الكثيرة . أما ترون فيه الحاكم السياسي والاداري والقاضي الشرعي وأمراء العسكرية وغيرهم من رجال الحكومة ممتزجين بعلماء الدين الاسلامي وقسوس النصرانية وسائر أصناف الامة من الزراع والصناع والتجار والعمال وتلاميذ المدارس (١) والبشر يتدفق من وجوه الجميع لان العيد هو عيد الجميع

ثم انني أهنئ الامة في هذا العيد السعيد بمعنى آخر وهو انها قد صارت في هذا اليوم حاكمة لنفسها بنفسها فان المبعوثين الذين اجتمعوا في هذا الوقت المبارك في دار السلطنة لينظروا في قوانين البلاد وكيفية تنفيذها فيقروا ما يشاؤن ويغيروا

(١) ذكرت هذه الاصناف مع الاشارة الى كل صنف من المتصرف الخ

ما يشاؤن لم يكن السلطان هو الذي اختارهم وولاهم هذا العمل ولا غيره من رجال الحكومة ، وليس له ولا للحكومة ان يختاروا غيرهم عند انتهاء مدتهم أو يبعدوا انتخابهم، وانما كان هذا من الامة فهي التي أنابتهم عنها للنظر في شؤونها لأن هذا الحق هو لها دون غيرها فهي إذن الحاكم الاعلى وجميع الحكام من أعلاهم الى أدناهم مستأجرون لها بمالها لاجل ان يقوموا بما لا بد لها منه ولا غناء عنه من المصالح العمومية ملتزمين في ذلك شريعتها وقوانينها التي ارتضتها لنفسها

في هذا اليوم نالت الامة هذا الشرف العظيم بالفعل ، وكانت من قبل مستعبدة للحاكم المستبد يتصرف في أموالها وأرواحها وحقوقها كما يشاء ، ولا يسمح لها ان تقول ولا ان تفعل الا ما يدل على السمع والطاعة والخضوع للعبودية

بقي ان تعلموا أيها الاخوان أن حكم الامة لنفسها محصور فيما ذكرنا من اختيارها وانتخابها لمن ترى فيهم الكفاءة والاستعداد لوضع القوانين العادلة لها والمراقبة لتنفيذها والنظر في مصالحها العامة كعلاقة الدولة مع الدول الاجنبية وليس منه ما رأيناه من تجمهر بعض الافراد واجتماعهم في دار الحكومة لإلزام بعض الحكام بما يرونه ويرغبون فيه فان هذا هو عين الفوضى والخلل لا تصلح معه حال ، ولا يستقر نظام ، ونسأل الله ان يتم علينا هذه النعمة ويوفق نوابنا إلى ما فيه خير الملة والامة .

* * *

خلاصة الخطبة الثانية في نادي الجامعة العثمانية

أحب أن أقول كلمة وجيزة في معنى الثقة بنجاح مجلس الامة ودوام الدستور: سمعت كثيرا من الناس يدعون الله تعالى بمثل قولهم « الله يتم بالخير » فكان يسرني هذا الدعاء من جهة ويسوؤني من جهة أخرى . يسرني لانه صادر عن غيرة وحرص على نعمة الدستور وخوف على مجلس المبعوثين الذي يكفله ان يفشل أو يصيبه كيد الكائدين ، ويظفر بمراده حزب المستبدين المتقهقرين ، ويسوؤني بما يظهر من فحوى القول ولحن الدعاء ، من ضعف الثقة وتغليب الخوف على الرجاء ، فان هذا الخوف يكاد يقرأ على الوجوه ، ويسيل من الالسنة متدفقا عن القلوب ،

اني أدعو مع الداعين بأن يتم الله عملنا بالخير ويجعل النهاية خيرا من البداية فانا لا نستغني عن الدعاء ، في السراء ولا في الضراء ، ولكنني أدعو وأنا ممتلئ القلب بالأمل والرجاء ، ولست أرى للخوف محلاً بفضل الله وكرمه فان حالنا اليوم لا تقاس على حالنا من مدة ثلث قرن كامل أيام عقد مجلس الامة الاول ثم حله الاستبداد فلم يلق في حله مقاومة ولا ملاما ، بل كان برداً وسلاما ،

الفرق بين مجلسنا اليوم ومجلسنا في ذلك الوقت بعيد جدا ، ان ذلك المجلس لم يكن بسعي الامة ولا برأيها ولم تكن عالمة به ولا مستعدة له ، وإنما هو من صنع مدحت باشا ابي الحرية وبعض اخوانه الوزراء والكبراء فهم الذين وضعوا القانون الاساسي ، وبسعيهم ألزموا السلطان بقبوله فأظهر القبول وأمرت الوزارة بانتخاب المبعوثين فانتخبوا واجتمعوا ولما تفرق شمل هذه الوزارة حل السلطان ما كان منعقدا ، وفرق ما كان مجتمعا ، فكان ابطال « مجلس المبعوثان » أسهل عليه من إبطال نابليون لمجلس النواب ، إذ لم يكن له من الامة عضد يؤيده ، ولا من الجيش نصير يحفظه ويعضده ، أطلقوا على ذلك المجلس لقب « أوت أفندم » (١) إذ قالوا ان الاعضاء كانوا يصادقون على كل شيء تلقيه اليهم الحكومة بكلمة « أوت أفندم » فلما أراد السلطان فض المجلس قال لهم مندوبه : اخرجوا واذهبوا إلى بلادكم ، فوضعوا أيديهم على جباههم « إشارة الطاعة » قائلين « أوت أفندم » وولوا منصرفين ، فما كان لهم من فئة ينصرونهم وما كانوا منتصرين ،

ماذا كان من أمر القوة العسكرية كالشرطة وغيرها ؟ انها هددت المبعوثين ذوي الجرءة وأنذرتهم البطش بهم اذا لم يسرعوا بالسفر من الاستانة فذهبوا مسرعين ذلك بأن الاستبداد خاف من بقائهم ان يحدثوا هنالك تأليبا للناس ويحملوهم على المطالبة بقاء مجلس الامة والمحافظة على القانون الاساسي ، على أن الامة نفسها لم تكن تحفل بذلك ولا تعرف قيمته ولذلك لم يظهر منها أدنى اهتمام في مكان ما

أما الآن فقد تغيرت الحال ، واستبدل الله أقواما بأقوام ، فقد نلنا الدستور وأعدنا القانون الاساسي بسعي احرار الامة النابغين ، ومساعدة الجند وضباطه المستنيرين ،

---

(١) كلمة تركية معناها : نعم ياسيدي

لا بسعي أفراد من الوزراء يمكن أن يصيبهم ماأصاب مدحت باشا واخوانه من نفي واغتيال فيذهب الدستور ومجلس الامة ويموتان بموتهم كلا إن من ورائهما ذلك الجند الباسل الذي ساعد احرار الامة على نيل هذه الرغيبة ولولاه لم نصل الى هذه النعمة ، من غير خطر على الدولة والامة ، ومن ورائهما احرارنا المنبثون في جميع الولايات العثمانية ينفخون روح الدستور فيها

تشهد أم أوربا كلها بأن الجيش العثماني أشجع جيوش العالم وأشدها بأسا وثباتا في ميادين الجلاد حتى قال الجنرال مولتك القائد الالماني الشهير الذي نكل ذلك التنكيل بالفرنسيس: اعطوني مئة الف جندي عثماني افتح بهم اوربا كلها. ولكنهم كانوا يقولون ان هذا الجيش الباسل ينقصه الضباط والقواد العارفون الصادقون . والآن يوجد عندنا عدد عظيم من هؤلاء الضباط الذين تعلموا أحسن التعليم وتربوا أعلى التربية وهم الذين كانت تطاردهم السلطة المستبدة الماضية خوفاأن يقضوا على استبدادها حتى شتتت شمل الكثير منهم فكان منهم المسجونون ومنهم المنفيون ومنهم الهاربون وقد بقي في الجيش العامل منهم من قلب تلك السلطة وأراح الله البلاد العثمانية من شرها فهل نخاف اليوم على مجلس الامة وقد عاد أولئك الضباط الكثيرون من سجونهم ومنفاهم وانضموا الى اخوانهم العاملين في الجيش وكل منهم يفدي الدستور ومجلس الامة بروحه ويبذل دونها آخر نقطة من دمه ؟

كلا ان العارف بحال الدولة والجيش وبما أتته جمعية الاتحاد والترقي من الاحتياط والتدبير للمحافظة على الدستور وحماية مجلس الامة لايخالج صدره أدنى خوف على المجلس في هذا اليوم وإنما كنا نخاف على الدولة في دور الانقلاب من الخارج ، كنا نخاف ان تقوم في وجهنا أوربا فتفسد علينا عملنا وتضطرنا الى الدخول في حرب لانأمن عاقبتها ، أما وقد لقينا من الدول الاجنبية ميلا وانعطافا عظيمين الا ما كان من ضم النمسا ولايتي البوسنه والهرسك الى أملاكها ومن إعلان البلغار الاستقلال ولم يكن في ذلك أدنى خطر على حكومتنا الجديدة ولله الحمد والمنة ، بل رأت النمسا الحرب الاقتصادية التي ناجزتها بها الامة العثمانية ماجعلها تندم على مافعلت وتود إرضاء الدولة العلية

أما المشاغب الداخلية التي يحركها في بعض الولايات انصار الاستبداد من حزب التقهقر كالعراق والشام والحجاز فلا خوف منها ولا خطر فاذا قام مثل طالب الرفاعي، يثير حزبه من أكلة الافاعي ، ليفسدوا في الارض ويؤلبوا الاشقياء في ولاية البصرة على الدولة فان قيامه هذا لا تأثير له، ولا يعجز الحكومة الحرة استئصاله ، فان لديها من الرجال من يأكلون أكلة الافاعي ، فلا يعجزهم التنكيل بهذا الرفاعي ، كما نكلوا قبله بذلك الشقي الكردي ، فسيحبط عمل المفسدين ويستقر الامن في جميع الولايات العثمانية عن قريب ان شاء الله تعالى

ومن الناس من يخاف ان يفشل مجلس الامة ويعجز المبعوثون عن القيام بما نيط بهم وعهد اليهم من مصالح الدولة والامة ، واني أصيح بأعلا صوتي ان هذا الخوف في غير محله أيضا . ان المجلس السابق على ما كان عليه من الضعف وماقيل من ان جميع أعضائه أرادوا ان يكونوا من حزب الحكومة حتى لقبوا بكلمة « أوت أفندم » لخضوعهم لما يراد منهم — على هذا كله قد ظهر من بعضهم أفكار وآراء حسنة واستقلال يرجى خيره لو دام فكيف يكون مجلسنا اليوم وقد ارتقت الامة بالنسبة الى زمن المجلس الاول في الاستعداد والمعارف والافكار بالرغم من اضطهاد الحكومة الاستبدادية للعلم والحرية حتى انها بنبوغ الكثيرين من رجالها قد انتصرت على الاستبداد وهو — كما قال الاستاذ الامام — في عنفوانه « والظلم قابض على صولجانه » ويد الظالم من حديد ، والناس عبيد له أيّ عبيد

ثم ان مجلسنا الذي نحتفل بافتتاحه اليوم مؤلف من طائفة من الاحرار المتطرفين وطائفة من المحافظين الجامدين ، وفيه عدد قليل من المعتدلين «وكثير من رجال العلم والدين ، واني أرجو — كما يرجو كثير من محبي الاعتدال — ان يكون تأليفه من هذه الطبقات المختلفة التي تمثل الامة كلها أقرب الى النفع وأبعد عن الخطر فانني أعرف كثيرا من احرارنا المتطرفين يميلون الى العجلة في الاصلاح ، وقد يكون من المستعجل الزلل ، ومن تأنى نال ما تمنى ، والعجلة في طور الانتقال من حال الى حال لا تخلو من خطر أو ضرر فان خاب الامل (لا سمح الله) وضعف المجلس عن الاصلاح المطلوب

الآن فان جمعية الاتحاد والترقي المباركة التي أخذت على نفسها كفالة الدستور تسعى عند الانتخاب الثاني وتجتهد في جعل جميع الاعضاء أو اكثرهم من نابغي الامة ونحمد الله ان في أمتنا من النابغين من يشهد لهم بالفضل والعرفان ساسة الاوربيين ، ناهيكم بأولئك الكرام الذين احدثوا هذا الانقلاب العظيم الذي ادهش عالم المدنية بما دل عليه من الحكمة والاعتدال

من الخطإ العظيم ان نطالب المجلس بأن يصلح حال الدولة ويرقي الامة في زمن قريب فان التدريج سنة الهية في الارتقاء ، والطفرة محال لا يطلبها العقلاء ، وإننا واثقون — مع الاتكال على معونة الله وتوفيقه — بأن يكون لمجلسنا من الخدمة النافعة ما تقتضيه مصلحة الامة في حالها الحاضرة ، آمين

* * *

خلاصة الخطبة الثالثة في نادي جمعية الاتحاد

انا منذ أعلن الدستور ، في فرح وسرور ، الى أن أتم الله سرورنا في هذا اليوم السعيد ، الذي هو للامة العثمانية أكبر عيد ،

كانت أسباب سرورنا في الاشهر الماضية سلبية وسبب سرورنا اليوم ايجابي وجودي ، سررنا منذ اعلن الدستور بأننا صرنا آمنين على أنفسنا أي لا نخاف ان نؤخذ بتهمة جاسوس ولا وشاية واش ، آمنين على بيوتنا أي لا تستطيع الحكومة أن تدهم علينا فيها ليلا أو نهارا للبحث عن كتب العلم وصحف السياسة التي كانت تسمى في عرفها بالاوراق الضارة أو « المظرة » ، سررنا بأننا صرنا أحرارا لا يمنعنا أحد مما نريد من التعليم والتربية ولا من اظهار استعدادنا في أي عمل من الاعمال ، سررنا بأننا صرنا آمنين على أموالنا لا يستطيع أحد أن يضرب علينا ضرائب ولا أن يأخذ منا أموالا لا يفرضها علينا الشرع الذي نعتقده أو القوانين التي يضعها لنا نوابنا الذين انتخبناهم للنظر في مصالحنا — كل هذه الفوائد التي استفدناها من الدستور مذ أعلن الى اليوم معناها سلبي تفسر بلا لا لا

في هذا اليوم تبتدىء المنافع الايجابية فقد اجتمع وكلاء الامة الذين أنابتهم

عنها للقيام بما يعزز دولتها ويرقي شؤونها ، واننا ننتظر من وراء ذلك من الفوائد ما ينمي ويزيد مع الايام والسنين الى آخر الدهر ، اننا نهنيء أنفسنا بأن الامة قد صارت منذ اليوم حاكمة لنفسها وأمرها في يدها ، فما الذي يجب عليها لتكون محسنة في هذه السلطة وقادرة على استدامتها وحفظها ؟ يجب أن تُعنى بأن تكون أمة دستورية بالطبع مستقلة بالذات متحلية بالمعارف والاخلاق التي تمتاز بها الامم بأن تحاول أن يصير كل فرد من أفرادها اهلا لان يختار نواب الامة عن بصيرة أو يُختار هو بالاستحقاق

أول ما يجب علينا أن نفكر فيه ونتوجه اليه هو أن نتولى نحن بأنفسنا إصلاح امورنا ولا نتكل على الحكومة في عمل من الاعمال التي يفرضها القانون على رجال الحكومة . فحسبنا من هؤلاء أن يقوموا بما عهد اليهم بالصدق والاستقامة ، ويجب أن يكون لهم منا عون ومساعد على ذلك ، وأن نتولى نحن سائر الامور التي تحتاج اليها الامة كتربية الاولاد ، وما يتعلق بالثروة والاقتصاد

قد تعودنا أن ننتظر كل اصلاح من الحكومة ولذلك اصابنا ذلك الفساد الكبير بفسادها ، ولا يزال كثير منا ينتظرون أن تصلح لهم الحكومة ماء البلد وتمهد لهم الطرق ، وتمد لهم خطوط الحديد ، وان اتكال الامة على الحكومة في كل الامور العامة صار منذ اليوم من التناقض أو مما يستلزم التناقض ، فبينا هي تفتخر بأنها صارت حاكمة لنفسها متولية لامورها اذا هي تتبرأ من كل عمل لها وتلزمه بالحكومة لزا ، وتلصقه بها الصاقا ، وان لم يكن مما يعمل مثله الحكام . فالحكومة على المعنى الاول افراد من الامة — في الغالب — تستأجرهم بمالها للقيام بأعمال مخصوصة لا تستغني الهيأة الاجتماعية عنها على الوجه الذي تحدده شريعتها (أي الامة) وقوانينها التي يضعها نوابها الذين اختارتهم لذلك ، وهي على المعنى الثاني عبارة عن رعاة والامة رعية لهم ليس لها من أمرها شيء فهم يسوسونها كما يسوس الراعي غنمه ، أو سادة يتصرفون في ملكهم وعبيدهم فما هذا البون العظيم بين الامرين !!!

انما فشل مجلس المبعوثين السابق لانه لم يكن من جانب الامة ولا كانت الامة كافلة له ولا عارفة قيمته ، ولم يكن المرحوم مدحت باشا واخوانه الذين وضعوا

القانون الاساسي وأسسوا مجلس المبعوثين يجهلون ان الاصلاح الحقيقي الذي يثبت ويدوم إنما يكون بتربية الامة وتعليمها حتى تصير أمة دستورية بالطبع لاتقبل الحكم الشخصي بحال من الاحوال ، ولكنهم رأوا هذا الطريق طويلا يحتاج الى عشرات من السنين ، ورأوا الاخطار مهطعة الى الدولة ، وأعناق الدول الطامعة ممتدة اليها ، وبراثنها ناشبة باطراف جسمها ، فعزموا على سلوك الطريق القريب وهو جعل الاصلاح من جانب الحكومة ، فعملوا ماعملوا وألزموا السلطان بإعلان القانون الاساسي . ولا يشك عاقل في كون الإصلاح اذا جاء من جانب الحكومة، يكون أسرع من مجيئه من جانب الامة ، إذا هو ثبت ودام ، ولكن ثباته ودوامه عزيز المنال ، بل هو مع جهل الامة من قبيل المحال ،

ان الإصلاح في الأمم لا يأتي الا بالتدريج وهو انما يكون أولا بنبوغ بعض الرجال فيها ثم لا يزال يزيد النابغون حتى تكون بهم الامة من الامم الحية العزيزة القوية ، فيكون مثلهم فيها كمثل الشجرة المثمرة التي يبدو صلاح ثمراتها طائفة بعد طائفة ، وان من الشجر ما تكون بواكر ثمره غير جيدة ويجيء الجيد بعد ذلك كشجرة التين فان أول ثمرها الذي نسميه (الدافور) لا يجدي ولا يفيد ، ولكنه يكون مبشرا بماوراءه . ولقد كان شهيد الحرية والدستور مدحت باشا وإخوانه من قبيل (الدافور) من شجرة التين من حيث انهم كانوا مقدمة لصيرورة الامة العثمانية دستورية اذ تحقق ذلك من بعدهم ، ولم يتم في عهدهم ،

إن أول شيء يجب أن نوجه همتنا وعنايتنا اليه ، ونعول في حفظ شجرة الامة عليه ، هو التربية والتعليم ، اللذان يكثران فينا عدد النابغين ، فان الاحرار الذين قلبوا لنا الحال ، ونلنا بسعيهم هذه النعمة ، كلهم من ذوي التربية العالية ، الواقفين على العلوم العصرية التي عليها مدار العمران وارتقاء الممالك . وان جمعية الاتحاد والترقي التي نشيد بذكر فضلها قد تأسست أولا في المدرسة الطبية العسكرية في الاستانة ثم كان لها تأسيس آخر منذ عهد قريب

اخبرني بعض من تخرج في هذه المدرسة أن الشعور بسوء حال الدولة وبما ينذرها من الخطر قد بلغ من نفوس التلاميذ فيها مبلغا عظيما حتى ان الصائح بكلمة الدغاء

للسلطان في الوقت المعتاد صاح مرة « بادشاهم جوق يشا » ففتح التلاميذ أفواههم ولكن لم يخرج منها ذلك الصوت المعتاد الذي كان يملأ جوّها ، وما ذلك الا ان العلم بسوء الادارة وما كان يجب ان تكون عليه قد حرك في نفوسهم ذلك الشعور المحزن فعقد ألسنتهم ان تنطق بذلك الدعاء التقليدي المعتاد . فاذا لم نجتهد في تعميم التعلم الذي يمنح صاحبه هذا الشعور بحيث ينمي ويكثر فينا أمثال هؤلاء الرجال فاننا نخاف ان لايكون لهم خلف وماالموجودون منهم بخالدين ، فاذا لم ينتجوا ويجيء بعدهم من هم مثلهم وخير منهم فلا حياة في الأمة فان النتاج والنماء هما ثمرة الحياة والمقصد منها

يوجد في أكثر الولايات بل البلاد العثمانية افراد من الاحرار الذين استنارت عقولهم بالافكار العصرية ، ومعرفة طرق ترقي الامم والغيرة على المصلحة العامة ، فيجب على الامة ان تقدرهم قدرهم وأن تستعين بهم على ماينبغي لها في هذا الطور الجديد

لست أعني باعتماد الامة على نفسها دون الحكومة في التربية والتعليم ان لاتبالي بمدارس الحكومة . كلا ان الغرض الاول للحكومات من مدارسها هو تعليم طائفة من الامة مايقدرون به على القيام بأعمالها على وجه السداد ، وليس في وسع الحكومة ان تعلم جميع افراد الامة جميع مايحتاجون اليه وانما تقدم بذلك الامة نفسها

كيف تقوم الامة بذلك ؟ هل يعلم كل واحد نفسه ؟ هل يقول كل متعلم لمن يراه غير متعلم هلم أعلمك ؟ لالا ، وانما تقوم بذلك الجمعيات الخيرية فهذا الزمن زمن الجمعيات ، ولم ترتق أمة فيه بغير الجمعيات ، وحسبكم ان بعض الجمعيات عندنا قد اسقطت الحكومة الاستبدادية ، وأدالت منها حكومة دستورية ، فأي برهان أقيمه لكم على قوة الجمعيات أوضح من هذا الذي أنتم فيه ترون أثره بأعينكم ، وتلهجون بذكره بألسنتكم

لاينتشر العلم في هذا العصر الا بالجمعيات ، ولا يرتقي نوع من أنواع العلوم الا بالجمعيات ، ولا يقوم أمر من الامور العامة الا بالجمعيات فعلينا ان نبدأ قبل كل شيء بتأسيس الجمعيات الخيرية التي تنشئ لنا المدارس والكتاتيب ، وان نعضدها بأموالنا على قدر استطاعتنا فبذلك نكون اهلا لترقية أنفسنا وترقية زراعتنا وترقية تجارتنا وسائر موارد الثروة التي تعتز بها الامة

ان في بلادنا خيرات كثيرة منعنا من الاستفادة منها الجهل والاستبداد الذي

كان يضطهد العلم ويؤيد الجهل ، فبالعلم صارت جزيرة زيلنده ا كثر فائدة وانمى زراعة من مصر المشهورة بالخصب والزكاء وإن في بلادنا ماهو أخصب من أرض مصر تربة كأراضي الجزيرة بين النهرين (دجلة والفرات) التي قال هيرودس ابو التاريخ انها كانت تؤتي غلتها من مئة ضعف الى مئتي ضعف أي ان الشنبل (كالاردب) من القمح كان يغل لصاحبه مئتي شنبل . أيجوز ان تبقى هذه الارض التي لانظير لها خرابا لاينتفع منها بشيء (*

حسبنا من نعمة الدستور اننا صرنا احرارا ولايمنعنا مانع من الاستعداد ، ولا من العمل الذي نستقل به أرضنا ونستفيد من مواهبها الطبيعية ، وقد سمعتم من بعض الخطباء كلاما في الحرية فمن لي في هذا المقام أن ازيد شيئا وجيزا على ماقالوا فان المجال ذو سعة

الحرية تقابل الرق والعبودية فمعنى كوننا صرنا احرارا اننا كنا من قبل مستعبدين للحاكم المستبد أو اننا الآن قد خرجنا من هذا الرق والعبودية ، كان الحاكم قادرا على ان يمنعنا من التصرف في انفسنا وأموالنا كما نشاء فأصبح عاجزا عن ذلك . كان يمنعنا بالفعل ان نظهر استعدادنا الفطري للارتقاء من العلوم والاعمال فزال هذا المنع وصار يمكننا ان نخرج من المضيق الحيوي الذي حبسنا فيه ليسهل عليه ان يجعلنا رعية ويكون لنا كالراعي للبهائم ، صار يمكننا ان نكون اناسي وبشرا يتمتعون بمزايا البشر.

يقول العارفون بعلم النفس وعلم الاجتماع البشري ان استعداد الانسان لا يعرف له حد يقف عنده فاذا عاش البشر ملايين من السنين فانه يمكن ان يكون ارتقاؤهم فيها متصلا ومستمرا ، ويعرف هذا من قارن وقابل بين أولئك الذين يعيشون حفاة عراة في صحاري أفريقية وجبالها وفي بعض جزائر المحيط وبين هؤلاء الذين

(*) ذكرت لهم بعد الخطبة حكاية الملك المستبد الذي سمع صوت بومتين تتجاوبان فسأل وزيره عن ذلك وكان الوزير قد ضاق ذرعا باستبداده فقال له انه ذكر يخطب أنثى فسألته ان يمهرها بضيعة خربة فقال لها اني أعطيك في عهد هذا الملك مئة ضيعة أو بلدة من الخراب . قلت وهكذا كان الخراب عندنا بحيث تصير أرض الجزيرة مهرا للبوم وجبال مالطه تزرع بالتراب الذي ينقل من الخارج

يخاطب بعضهم بعضا بالقول والكتابة بواسطة الاسلاك الكهربائية و بغير واسطتها مع بعد المسافات بينهم ، و يتمتعون بغير ذلك من ثمرات العلوم ونتائج المدنية الغربية

ما وصل أهل المدنية العالية في هذا العصر إلى ماوصلوا اليه من العزة والكرامة الا باطلاق العنان لجياد العقول ، في ميادين العلوم والفنون ، ومساعدة الاستعداد البشري على الرقي في معارج الكمال الاجتماعي اللائق به في ظل الحرية الظليل وحماية الدستور العادل

ولسنا نحن الشرقيين دون الغربيين استعدادا للعلوم والاعمال ولكن عبودية الاستبداد هي التي كانت تطفئ نور فطرتنا وتحجر على استعدادنا فلا تسمح لنا ان نظهر اسرار صنع الله وحكمه في خلقه ، ولا ان نتمتع بما سمح لنا الخالق الرحيم بأن نتمتع به ، كما قال في كتابه الحكيم : (هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعا) وقال تعالى (وسخر لكم مافي السموات وما في الارض جميعاً)

كان العالم منا إذا أراد ان يؤلف كتاباً نافعا قال نذير الاستبداد إياك ان تفعل فان مولانا لا يريد ذلك ، واذا حدثت محب الفلسفة نفسه بأن يحل إشكالا ناجاه منه الاستبداد في سره إياك ان تفعل فان مولانا لا يحب ذلك ، واذا خطر في بال أحد ان يبحث في اسرار الخليقة ليخترع شيئا ينفع الامة اسرّ له رسول الاستبداد : إياك ان تفعل فان مولانا لا يروق له ذلك ، كان لا يتجرأ أحد على إظهار أثر علمي أو عملي يرقي الامة في عقولها ونفوسها ، في دينها أو دنياها ، الا وجد الاستبداد له بالمرصاد ، وناله منه ماتعلمون من الاضطهاد ،

فالحرية ! هي تحرير البشر من هذه العبودية ، الحرية هي التي يكون بها البشر بشرا ، لاغنما ولا بقرا ، فالانتفاع من الحرية يجب ان يكون بتوجيه الاستعداد الانساني إلى العلوم والاعمال التي ترتقي بها الامة والأخذ بها بلا شرط ولا قيد ، لا باتباع الشهوات ، واتيان الفواحش والمنكرات ، ولهذا كان الحكماء ومحبو الانسانية ينشدون الحرية ، و يبذلون في الجهاد في سبيلها أموالهم وأنفسهم ، ولا غروَ فهم العالمون بالاسرار الالهية ، المودعة في الغرائز البشرية ، و بكونها لاتظهر الا في دائرة الحرية ،

ومن فوائد الدستور المساواة وقد خاض في بيانها الخطباء فأحببت ان أزيد عليهم كلمة في إزالة شبهة للناس فيها : يظن بعض الناس ان الدستور جعل الناس كلهم في مرتبة واحدة من كل وجه · وهذا من المحال الذي لا ينال بالدستور ولا بغيره وانما جعل الدستور الناس سواء في الحقوق — كما قال الخطيب السابق — فالغني والفقير ، والصعلوك والامير ، والعالم والجاهل ، والنبيه والخامل ، كلهم سواء في الحقوق ليس لأحد ان يعتدي على أحد في نفسه ، ولا ماله ولا يراعي الحاكم أحدا منهم ويهضم الآخر

أما المساواة في المواهب والغرائز وآثارها فليس للدستور فيها شأن فقد فضّل الله بعض الناس على بعض في الرزق والعلم والعقل كما نطق به كتابه ، ودلت عليه سنته في خلقه ، وله في ذلك الحكمة البالغة ، ولو جعل أفراد البشر سواء من كل وجه لما كان الانسان هو هذا النوع من الخلق الذي يظهر اسرار الطبيعة ، ويتمتع بما فيها من الحكم البديعة ، ولما تيسر للبشر ان يوجدوا الخبز الذي يأكلونه والثياب التي يلبسونها

ان تفاوت الناس في العقول والاخلاق ، هو الذي مكنهم من القيام بما ترون من الآثار والاعمال ، فان اختراع السفن البرية والبحرية واستعمالها مثلا لا بد فيه من العلماء الطبيعيين الذين اكتشفوا فوائد البخار والكهرباء والمهندسين والميكانيكين كما انه لا بد له من الفعلة لاستخراج الفحم من المناجم ومن الوقادين لوضعه في النار وهذان العملان من أشق الاعمال وأصعبها · أفرأيتم من كان مستعدا للاكتشاف والاختراع في العلوم والسياسة والامارة هل تتوجه نفسه وهل يرضى بأن يستخرج الفحم من مناجمه في الارض أو بأن يقذفه في النار ؟ أو تتوجه نفسه لنحو ذلك من الاعمال الحقيرة التي لا بد منها في الاجتماع البشري كالكناسة وما في معناها ؟ كلا إن هذا النوع من المساواة ما كان ولن يكون وانما يتقارب الناس ويتعاطفون بتعميم التربية والتعليم ، فنسأل الله أن يهدي الامة العثمانية في ذلك إلى الصراط المستقيم